

الشعانية والطوارق بين المقاومة والولاء للاحتلال الفرنسي أواخر ق19م وبدايات ق20م

Chaanba and Touareg between Resistance and Loyalty to the French Colonizer in the Late 19th Century and Early 20th Century

جامعة أحمد دراية/ الجزائر	مخير الدراسات الافريقية للعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية – تاريخ الجزائر المعاصر	زعموشي زينب - طالبة دكتوراه zinebzamouchi9@univ- (adrar.edu.dz)
جامعة أحمد دراية/ الجزائر	التاريخ المعاصر	بوعريوة عبد المالك - أستاذ التعليم العالي (bouarioua@univ-adrar.edu.dz)
DOI :		

الإرسال: 2025/10/14 القبول: 2025/11/09 النشر: 2025/12/20

ملخص:

اصطدم الاحتلال الفرنسي للجزائر بعراقيل ومثبطات جعلت سيطرته على الصحراء الجزائرية تتأخر إلى القرن 20م، وقد كانت قبائل الشعانية والطوارق باعتبارها أكبر المجتمعات المسيطرة على الجنوب الغربي وجها لوجه أمام مخطط التوسع الاستعماري بالمنطقة، والتي قد أبدت موقفين متباينين منه، فهناك من اتخذت المقاومة ردا قاطعا للزحف الاستعماري وكانت عرينا لزعماء المقاومة الوطنية، ومنها استسلمت لولايات الاستعمار ومغرياته لدوافع مختلفة، فجند أبناءها في صفوف جيشه، مما ساهم بشكل واضح في إرساء قواعد الاستعمار الشامل بالجزائر وتحقيق متطلبات المشروع الاستعماري الفرنسي بإفريقيا.

كلمات مفتاحية: الشعانية؛ الطوارق؛ الاحتلال الفرنسي؛ المقاومة الشعبية؛ الجنوب الجزائري.

Abstract:

The French colonizer faced many obstacles in Algeria that delayed its control on the Algerian Sahara to the 20th century. The tribes of Chaanba and Touareg, which were the biggest communities that dominated the Algeria West, faced the French expansion in the region. However, their people were divided into tow groups. In this regard, one included the leaders of the national resistance and embraced resistance to stop colonization. On the other hand, another group surrendered to the colonizer for different reasons and joined its team, paving the way for the comprehensive colonization in Algeria and the achievement of the requirements of the French project in Africa.

Keywords: Chaanba; Touareg; French colonizer; Popular struggle; Algerian South

مقدمة:

ركزت فرنسا منذ احتلالها الجزء الشمالي للجزائر على تمديد دائرة نفوذها بدخولها غمار التنافس الأوروبي الاستعماري على إفريقيا، وتحقيقا لحلم الإمبراطورية الصحراوية الفرنسية. غير أن الاحتلال الفرنسي سجل تأخرا في بسط سيطرته على الجنوب الجزائري، ولم يتأتى له ذلك إلا بعد الكثير من الخسائر المادية والبشرية التي أثقلت كاهله، وقد عمدت الإدارة الاستعمارية خلال توسعها في هذه الأراضي المجهولة -أغلبها- عند الضباط الفرنسيين، على التغلغل في المجتمع الصحراوي وتفكيك وحدته بشتى الطرق واستمالة البعض لكسب التأييد. كان هذا بعد حدة وشراسة المعارك التي خاضتها في معظم المناطق الصحراوية على غرار مناطق نفوذ قبائل الشعانية والطوارق. ومنه نطرح إشكاليتنا التي سنحاول الإجابة عنها: كيف تعامل الشعانية والطوارق مع الاحتلال الفرنسي ومخطط توسعه الاستعماري نحو مناطقهم؟ وما موقفهم من المقاومة الشعبية وتراجع بعضها إلى تخومها؟

أولا: لمحة عن قبائل الشعانية :

هناك من ذكر الشعانية بأنهم القبيلة الصحراوية الوحيدة المتجذرة عن سلالة عربية، ولقد وصلت إلينا روايات مختلفة حول أصلهم، لعل أقربها للتصديق هي التي ذكرت بأنهم من عرب بنو سليم القيسية العدنانية، وقد جاءت إلى الجزائر مهاجرة لتستقر بها أحد بطونها بنو عوف بن بهثة الذي تفرعت منهم شعانية الجزائر (دين و دليوح، مساهمة الشعانية في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1865-1880) أنموذجا، 2023، صفحة 212).

أما عن معنى اسم القبيلة فالمرجح أنه تركيب لكلمتين هما "شعاع بان" أي الشعاع ظهر، ذلك أنهم عرفوا بالكرم فكانوا يتركون النار مشتعلة ليلا، عسى أن يهتدي إليها عابرو السبيل فيستضيئونهم، ليذيع صيتهم بهذا الوصف إلى أن أصبحت شعانية (لكحل، 2021، صفحة 67).

يحتل الشعابنة المنطقة الواقعة بين ورقلة والقليلة ومتليلي، وتنقسم إلى أربعة فروع: المخادمة وشعابنة حبر الرّح ينتشرون بورقلة، وشعابنة المواضي نجدهم في القليعة، والبرزاقة يحتلون متليلي (Soleillet, 1877, p. 85).

وقد جاء في القاموس المعرف للقبائل حسب الإدارة الاستعمارية أن شعابنة (Chaamba) (شعابنة متليلي-برزقة) ليسوا خاضعين للقانون المشيخي، وهي تابعة إداريا لغرداية وتتكون من شعابنة متليلي، أولاد عبد القادر، أولاد العلواش وشعابنة المواضي (Accardo, 1879, p. 51).

تنقسم هذه العروش بدورها إلى فرق، وهناك قسم من هذه الأعراش عرفت بالفتح وقد سُمّوا بالشراقة، أما التي وصفت بالمحافظة والانغلاق فهم الغرابية. يسيطر الشعابنة على الجزء الشمالي للصحراء الذي يتميز بكثبان الرملية، هذه البيئة في البداية خلقت صعوبات لدى الجيش الفرنسي في مطاردة المقاومين، لكن السياسة الفرنسية استطاعت بفضل الدراسات الجيولوجية للصحراء التي قام بها الرحالة الفرنسيون واحتكاكهم بسكان المنطقة أن تغير نظرتها للرق ليصبح أفضل مكان للرعي (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, pp. 87-88).

عُرف أفراد قبيلة الشعابنة بالترحال غير أن هناك من يبقى في القصور للاهتمام بمزارع ومنازل إخوانهم الرحل، وهؤلاء لا يبتعدون كثيرا مع قطعانهم عن المناطق التي يرتبط بها فرعهم (Soleillet, 1877, p. 85)، ويعتمدون على ما تدره عليهم الزراعة والماشية، فهم يملكون ثروة حيوانية خاصة ما تعلق بالمهارة (الجمال السريعة)، وجمالهم متميزة فهي تتغذى على نباتات تختلف عما تأكله جمال المناطق الأخرى، كما أن أقدامها متعودة على الرمال فتكون حساسة إذا ما استغلت في المناطق الصخرية (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 90).

تمارس هذه القبائل التجارة ويعتبر بني ميزاب أكثر المتعاملين معهم في هذه العلاقات التجارية، غير أن لهم مداخيل أخرى تعتمد على الاستيلاء على القوافل التجارية والأغنام. وبعبارة أخرى قد وصفوا بأنهم قطاع طرق ومتعودون على سرقة الأغنام والخيول من القبائل المغربية والإبل والحمير من الطوارق بجبال الهقار (Soleillet, 1877, p. 86).

وحقيقة الغارات التي عرفوا بها، وما أثبتته الوثائق الأرشيفية العثمانية، أن الباب العالي قد تلقى شكاوى كثيرة من القبائل، على غرار تجار غدامس عن هجمات الشعابنة المتكررة على قوافلهم التي تسير في الطريق التجاري نحو طرابلس (لكحل، 2021، صفحة 63).

غير أن هذه النقطة قد فسرت من منطق آخر، فهناك من رآها على أنها شكل من أشكال الضغط على الاستعمار الفرنسي، وتعبير عن الرفض المطلق للسياسة الاستعمارية في الصحراء التي هدفت إلى السيطرة على تجارة القوافل، مما اضطر الإدارة الاستعمارية إلى مراسلة الباب العالي للتدخل، لكن بغياب أي وثائق تثبت رد الباب العالي يجعل هذه الغارات تدخل في دائرة الصراع مع الاستعمار الفرنسي وأنها لا تستحق تدخله، ولأنها في مقابل ذلك جانب إيجابي للباب العالي فهي تساهم في الحد من السيطرة الفرنسية على الحدود المتنازع عليها (لكحل، 2021، صفحة 70).

أيا كان ظاهر هذه النقطة سلبيًا على سمعة الشعابنة، إلا أنها تنم عن رباطة جأش رجال الشعابنة فيما يسعون إليه، فلا تثبط عزيمتهم صعوبة مأكّل أو مشرب، كما أنهم يمتلكون مهارة الصيد وأوفياء بالوعد إذا وعدوا وكرمًا إذا استضيفوا. ومع كل صور الهيبة والرعب التي عرف بها الشعابنة فقد ظلت تحت سيطرة قبيلتها الحاكمة قبيلة أولاد سيدي الشيخ، ولم تتمكن الإدارة الاستعمارية من التخلص من تلك السلطة الدينية المفروضة، حتى بعد انضواء أغلب قبائل الشعابنة تحت الحكم الاستعماري (Soleillet, 1877, p. 87).

ثانيا: لمحة عن الطوارق:

تذكر المصادر أن موطن الطوارق هو مدينة السوك (منطقة حدودية بين أدرار وفوغاس) التي تقع شمال غرب دولة مالي حاليا، لكن بعد ضعف عائدات التجارة والجفاف التي شهدتها ق14م بالمنطقة، جعلت قسما من الطوارق ينزحون إلى منطقة آزجار والهقار (هقاري، 2023، الصفحات 35-36).

أما عن اسمهم ولتعدد الروايات حول أصله، يشاع أنه "كيل تماهق" بينما يطلقون على أنفسهم "إموهاغ"، لكن بعد اختلاطهم بالعرب صاروا يسمونهم بالطوارق – التوارق-

التوارك باعتبارهم كل من يسكن من العرقين الكبير الشرقي والغربي شمالا ومن المحيط الأطلسي غربا إلى ودان شرقا (الشاوي اللاله البكاي، 2007، صفحة 30).

لقد وصف الفرنسيون الطوارق بأنهم برابرة وبدائيون، وأتهم الوحيديين الذين حافظوا على لغتهم الأم. يعيشون في الجبال كما يتميزون باستخدام أسلحة تقليدية يصنعونها بأنفسهم، ولطالما كانت بينهم وبين الشعانية عداوة وحرب دائمة (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 86).

ونظرا لتذبذب الأمطار بمنطقة الهقار وعدم انتظامها، اعتمد الطوارق على ضفاف الأودية لرعي جمالهم وفي بعض الأحيان يلجؤون إلى أودية الكثبان الرملية، ونتيجة للمناخ السائد بالأراضي التي يسيطرون عليها وطبيعة تضاريسها يظل سكان المنطقة بحاجة للمراعي على عكس الشعانية (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 90). إلى جانب هذا يعتمدون على تجارة الملح، هذه المادة التي توفرها طبيعة أراضيهم فيتاجرون بها في الأسواق (الشاوي اللاله البكاي، 2007، صفحة 32).

ولأنهم يسيطرون على أكبر الطرق التجارية، يقومون بتأجير جمالهم للقوافل لنقل بضائعها، كما يأخذون علاوات المرور مقابل توفير الحماية للقوافل التجارية المارة بمناطق نفوذهم، وبهذا يكونون قد ضمنوا دخلا إضافيا لهم (الشاوي اللاله البكاي، 2007، صفحة 34). لقد استعانت فرنسا أثناء توسعها في الجنوب على نظام القوافل الحرة تقليلا من خسائرها أثناء مباغعات المقاومين الجزائريين من جهة ومن جهة أخرى حل مشكلة إيجاد المراعي الجيدة للجمال (Baquey, 1908, p. 33).

عرف عن الطوارق أنهم سلاطين الصحراء، فهم يتمتعون باستقلالية إدارية لقبائلهم لم يتمكن أي حاكم من قبل من تفكيكها، إذ تشكلت سلطة تقليدية بقيادة الأمنوكال وهو المنصب الأعلى للقبائل يختار من طرف رؤسائها، ويقومون بمساعدته على اتخاذ القرارات التي تخص قبائلهم (هقاري، 2023، صفحة 36). وقد ظل هذا التنظيم السياسي للطوارق ساري المفعول حتى بعد دخول الاستعمار الفرنسي واحتلاله للمنطقة، والمتغير الوحيد هو الشخص المختار للمنصب الذي كان في مراحل من الحكم تزكيه الإدارة الاستعمارية بعد موالاته لها. وقد تداول على منصب الأمنوكال منذ الاحتلال الفرنسي:

- أق مامه أق سيدي 1830
- الحاج أحمد أق الحاج البكري 1877-1830م
- اهيتاغل اق محمد بيسكا 1877م- 1900 م
- اتسي أق أملال 1900- 1905م
- موسى اق امستان 1905-1920م (هقاري، 2023، صفحة 37).

ثالثا: موقف الشعانية والطوارق من التوسع الاستعماري: 1/ مشاركة الشعانية والطوارق في المقاومات الشعبية:

اتسمت الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري بتداخلها زمانيا ومكانيا وحتى في الأشخاص الذين تزعموها وساندوها، لذلك سنحاول ذكر أهم النماذج التي سجل فيها الطوارق والشعانية حضورهم في مقاومة الاحتلال سواء أكانت هذه المعارك مشتركة أو كل منها على حدا.

لقد كان موطن الشعانية – متليلي- منطلقا لمقاومة أولاد سيدي الشيخ بزعامة محمد بن عبد الله التي اندلعت سنة 1864م (دين و دليوح، مساهمة الشعانية في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1865-1880) أنموذجا، 2023، صفحة 218). هذا الأخير كان متزعا المقاومة في الأغواط سنة 1851م وتم تسليمه للاستعمار الفرنسي بمساعدة الباشاغا بوبكر بن حمزة وتم سجنه في 1861م، غير أنه تمكن من الفرار والتحق بالصفوف الأولى لمقاومة أولاد سيدي الشيخ، كما شارك في مقاومة قبيلة النمامشة وثورة المقراني في 1871م (الصلابي، 2016، الصفحات 605-606).

وبالعودة للأحداث التي جرت قبل اندلاع هذه المقاومة ومشاركة الشعانية فيها، يذكر أن زعيم قبائل الشعانية حمزة ولد أبو بكر (زعيم أولاد سيدي الشيخ الشراقة) قد عينته السلطات الفرنسية خلفا لأبيه الباشاغا بوبكر بن حمزة، خليفة على الصحراء وذلك بمساعدة الكابتن كولومب Colomb (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 47). ولأن العلاقات بين أولاد سيدي الشيخ والاستعمار الفرنسي اتسمت بالحيطة والحذر، عمل هذا الأخير على تعذيب أتباع قبيلة أولاد سيدي الشيخ بمتليلي والمنيعية كمحاولة لتقليص نفوذها وتأثيرها بالمنطقة (دين و دليوح، مساهمة

الشعانية في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1880-1865) أنموذجا، 2023، الصفحات 218-219). لكن بعدما ضمنت الإدارة الاستعمارية مركزها في المنطقة تناقلت الروايات خبر تنحيته وعزله كما تضاربت حول حقيقة وفاته (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 47).

بعد وفاة حمزة أبو بكر خلفه أبو بكر أغا مستمرا في المخطط الاستعماري للقضاء على مقاومة الشريف محمد بن عبد الله لكن الموت أدركه قبل أن يحقق مبتغاه، فخلفه أخوه سي سليمان في 1864/2/28م الذي جاء مخالفا التوقعات بعدما احتضن مقاومة محمد بن عبد الله وحشد له 1000 من المهاري (دين و دليوح، مساهمة الشعانية في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1880-1865) أنموذجا، 2023، صفحة 219). وقد رد سبب إعلانه لمقاومته بعد استقالته من منصبه، ولما حدث لكاتبه الذي أصابه أحد الصبائحية بعد مشاجرة بينهما في المكتب العربي بالبيض في 1864/1/29م، وهذا ما اعتبره إهانة له (منور، 2006، صفحة 211).

وكانت معركته الأولى شرق البيض مدعما بقوات من القبائل المساندة بتعداد 3500 محارب، استشهد سي سليمان في هذه الحرب بعدما حقق انتصارا ساحقا وألحق خسائر كبيرة بقوات الجيش الفرنسي، فلم تجد الإدارة الاستعمارية أمامها سوى سكان متليلي والمنيعية لتصب عليهم جل غضبها نتيجة الإخفاق (دين و دليوح، مساهمة الشعانية في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1880-1865) أنموذجا، 2023، صفحة 219).

تزعّم المقاوم الجزائري محمد بن التومي بوشوشة ثورة الطوارق الذين رفضوا التوسع الاستعماري بالمنطقة، كما كان من المساندين لثورة أولاد سيدي الشيخ، انطلقت مقاومته بعد استعادته لمتليلي في 1870/5/5م ثم ورقلة في 1871/3/5م أين عين ناصر بن شهرة خليفة عليها، وفي 13 ماي من نفس السنة تمكن من السيطرة على تقرت بمساعدة أهاليها والشعانية حيث قسم قواته إلى فوجين: الأول يلتحق بالشعانية للقضاء على الجنود الفرنسيين، والثاني يربط بوسط تقرت (دين و دليوح، مقاومة الشريف بوشوشة ودور قبائل الشعانية فيها (1870-1881)، 2023، صفحة 312). ورغم أن الجيش الفرنسي تمكن من إعادة احتلال ورقلة والاستيلاء عليها في

1872/1/2م بقيادة الجنرال دو لاكروا (Delacroix) ، تراجع بوشوشة إلى المنية لكسب المزيد من الأنصار وإعادة تنظيم قواته (الصلابي، 2016، صفحة 611). وفي فيفري 1874م كان البطل بوشوشة متوجها نحو عين صالح مدعما 100 من رجال الطوارق والشعانية وأولاد سيدي الشيخ لتأديب القبائل التي خضعت للاستعمار الفرنسي. واستكمالا لمخطط القضاء على مقاومته والحد من توسعه في الجنوب أمر القائد العام لولاية قسنطينة الجنرال ليبرت (Liébert) ورقلة بملاحقة بشوشة والقبض عليه حيا أو ميتا، فتوجه أخوه سيدي السعيد في 26 فيفري من ورقلة نحو منطقة الملوك القريبة من عين صالح ووصل في 29 مارس وتمكن من أسر بوشوشة بعد قتل ما يقارب الخمسين من المقاومين الجزائريين (Simon, 1955, p. 19). بعد سجن بوشوشة اضطر الشعانية إلى عقد هدنة مع القوات الاستعمارية إلى غاية 1881م لينضموا إلى مقاومة الشيخ بوعمامة التي دامت أكثر من ربع قرن (دين و دليوح، مقاومة الشريف بوشوشة ودور قبائل الشعانية فيها (1870- 1881)، 2023، صفحة 317).

في إطار المعارك التي استهدفت إخضاع الساورة، أعلنت قوة من شعانية بوعمامة أواخر 1904م والبربر هجومها على دورية من كتيبة مهابيست قورارة (معركة قورارة) في 1904/12/11م، أين تم قتل وأسر العديد من الفرنسيين، وفي الرابع عشر من نفس الشهر استولت على قافلة البيض وافتكت منها 1000 جمل، ما جعل الجيش الاستعماري يستفر فتجهز بقوة عسكرية بقيادة النقيب مرتان (Martin) أين تم الاشتباك بغارات دويقة شمال مريجة في 31 من شهر ديسمبر، وقد تشكلت هذه القوة من:

- كتيبة من قورارة بقيادة الملازم بلينه (Belene)
 - كتيبة من مهابيست الساورة تحت قيادة الملازم روسو (Rousseau)
 - كتيبة من مهابيست تيديكلت تحت قيادة الملازم فوانو (Voinot)
- (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 62)

لقد تصدر أمنوكال الهقار أهيتفال محمد بسيكا بن الحاج البكري (1877- 1907) الأحداث في المنطقة بعدما أعلن عداؤه للاستعمار الفرنسي ورفع راية المقاومة، فعمل على توحيد قبائل الطوارق أمام محاولات التفاوض والاستمالة الفاشلة التي

قامت بها السلطة الاستعمارية، وقد شهدت فترة حكمه خوفا ورعبا واضحا لفرنسا بعد تعرض بعثة فلاتر سنة 1881 إلى الاعتداء من طرف الطوارق الذين فتكوا بأفرادها فوصلت الحصيلة إلى 51 قتيل ناهيك عن الأسرى، ولعل الخسارة الأعظم هي مقتل فلاترز (Flatters) والملازم الأول ديانوس (Dianus) (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، الصفحات 52-53)

لم يكد الجيش الفرنسي يعلن قضاءه على المقاومات الشعبية بالجنوب مطلع 20م حتى توحد الطوارق مرة أخرى وأعلنوا عن ثورتهم تزامنا مع انشغال السلطة الاستعمارية التي كانت تقاتل في الجبهة العالمية سنة 1916م، وقد ترامت هذه المقاومة من الحدود الليبية الجزائرية شرقا إلى مدينة تلمسان غربا، بما فيها مناطق الطاسيلي الهقار وأزجر، ومن مدينة ورقلة شمالا إلى حدود النيجر جنوبا.

كانت هذه الأجواء المشحونة والضاغطة على فرنسا، نتيجة مشاركة عدد كبير من الكتائب العسكرية الجزائرية في الحرب العالمية، الذي أوقعها في مأزق تأمين الحدود من القوات الإيطالية وإخماد أية مقاومة جزائرية وهذا ما يحتاج لقوة عسكرية كبيرة.

برز الشيخ أمود بن مختار الطارقي في منطقة جانت وضواحيها بسيطرته ونفوذه السياسي (1894-1920)، فعين رؤساء على المناطق الخاضعة له، واعتمد في مقاومته على أسلوب حرب العصابات متجنباً المواجهة المباشرة (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 53)، تمكن خلال مقاومته من استرجاع جانت التي استولى عليها الجيش الفرنسي في 1911م، مستعملا 400 رجلا مدعما بسلح المدفعية. ترتب عن هذه المقاومة استعادة جانت من السيطرة الاستعمارية في 1916/3/24م وانسحاب الضابط لوران لابيير (Lapierre) وقواته من الفرنسيين والصبايحية، لكنهم عادوا كرة أخرى بعد خبر وصول إمدادات عسكرية فرنسية لجانت ولسوء حظهم كان المقاومون الطوارق بزعامه الشيخ عبد السلام في انتظارهم، مما جعلهم يستسلمون (عمورة، 2002، صفحة 161). لم تمرر السلطات الاستعمارية هذه الحادثة، فقد توجهت قوة عسكرية بقيادة الضابط ميني (Minyee) لاسترجاع جانت، ونتيجة فارق العدد والتسليح اضطر الشيخ أمود إلى التراجع متجها إلى فزان حسب بعض المصادر ليبقى هناك مناضلا إلى جانب السنوسيين ضد الإيطاليين (بلعوز، 2021، صفحة 486).

2/ الشعابنة والطوارق ذخيرة الجيش الفرنسي:

عملت الإدارة الاستعمارية على إذكاء الصراع الذي وجدته بين قبائل الطوارق والشعابنة وتقرر بأن هذا التعارض هو سبب نجاح التوسع الاستعماري بالجنوب (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 87).

وصف الشعابنة بأنهم سادة الكثبان والطوارق سادة صحراء الحجر. بين الشعابني والطارقي علاقة تضاد تعبر عن واقع سياسي قديم، وعرقين مختلفين (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 195). وقد انتبه الاستعمار الفرنسي للاختلافات العرقية والسياسية لكلتا القبيلتين، ففي الطوارق يعتمدون على نظام الأمومة في الحكم والميراث، وهو ما رآه يتنافى مع ما يدعو إليه الدين الإسلامي، وأنهم بعيدون عنه (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 196). نتيجة لهذه الملاحظات كثيرا ما ادعى الفرنسيون بأن الطوارق ليسوا مسلمين، وأنهم أقرب للتفاهم معهم، ميالون للتعلم منهم، على عكس العرب الذين لا يثقون بالأوروبي ويتجنبون التعامل معه.

لقد وردت الكثير من المغالطات عن الشعبين الطارقي والشعابني في الكتابات الفرنسية، فقد اتهم الطوارق بأنهم غير مسلمين استنادا لتمسكهم وممارستهم بعض التقاليد والعادات، والشعابني الذي وصف بالعربي الذي لا يهتم بنظافته أو نظافة دابته.

لقد قارن الاستعمار الفرنسي فرق التسليح ووفرة المراعي في الأراضي التي يسيطر عليها الطوارق والشعابنة، كما أكدوا على أن سلطة الطوارق في الصحراء قد استمدوها من سيطرتهم التامة على الطرق التجارية (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 91). ولاحظ أن البدو الرحل بشكل عام مدربون على الحرب ومجهزون لها جيدا، ومن يسكن القصور التي تحيط بها حصون لا يتجرؤون على مجابهتهم فلقبهم بجيش الواحات (Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie, 1922, p. 103).

لقد ساهمت بعثة دو فيري هنري (Duveyrier Henry) إلى الصحراء الجزائرية في توطيد العلاقة الفرنسية الاستعمارية مع رؤساء بعض القبائل الطارقية، ففي مهمة إلى بلاد الطوارق كلف بها هنري من طرف الوالي العام للجزائر، وصل إلى غدامس 1860/9/11م

ومكث فيها 4 أشهر تعرف فيها على الشيخ عثمان والشيخ امنيكول إيخوخن. هذا الأخير الذي سيكون له اتفاقية مع الإدارة الاستعمارية لاحقا، ساعد هاذين الشيخين هنري على الوصول إلى غات وتحاوز المسالك الوعرة، لكن بعد تعرضه لسوء استقبال من سكان هذه المنطقة قرر المكوث بمنطقة الطاسيلي لمدة سنة كان قد انمج فيها مع السكان واطلع على عاداتهم وتقاليدهم، لكن مهمتهم لم تكتمل بسبب مرضه فعاد إلى الجزائر وقدم تقريرا مفصلا للوالي العام عما عايشه منذ بداية مهمته، ليتقرر لاحقا إصدار كتابه (Les Tourags du Nord) (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، الصفحات 67-68).

توالى البعثات للمناطق الصحراوية وكانت بعثة هوفمان (Hoffmann) وإسماعيل بوضربة باتجاه غدامس سنة 1862 مكللة بالنجاح (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 52)، بعدما تمكنت من إبرام معاهدة غدامس في 1862/11/26 م مع شيخ الطوارق إيخنوخن لتوفير الحماية للفرنسيين بالمنطقة، وسعت لتطبيق نظام سياسي فرنسي خاص ويمكننا إجمال بنود هذه الاتفاقية في:

- إقرار علاقة الصداقة والتبادلات التجارية بين الطرفين الفرنسي-الطارقي

- الالتزام المتبادل بين الطرفين بتوفير الأمن وتسهيل العبور ضمن مناطق نفوذ الطوارق والدفع المادي مقابل هذه الخدمة ووفق ما يحدده الطوارق.

- ضمان استمرار هذه العلاقة بين الطرفين في أجواء سلمية وفتح الطرق التجارية للفرنسيين نحو السودان (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 70).

فسرت هذه المعاهدة على أن الطوارق قد أرغموا بطريقة غير مباشرة على الحفاظ على العلاقات السياسية والاقتصادية الحسنة مع السلطة الاستعمارية، خاصة بعد احتلالها المناطق المجاورة لأراضيهم، وحسبهم أن هذه الاتفاقيات ستضمن أمنهم واحترام الاستعمار الفرنسي لاستقلاليتهم وسلطتهم (الشاوي اللاله البكاي، 2007، صفحة 154).

إن المتتبع للأحداث التي جرت بعد سنوات من عقد هذه الاتفاقية أن نوايا فرنسا لم تقتصر أبدا على الجانب الاقتصادي، وإنما كانت بحاجة ماسة لورقة رابحة تمكنها من

التغلغل داخل المجتمع الطارقي وكسب ودّهم وثقتهم، بعد العداء الذي أظهره هؤلاء وهجوماتهم على البعثات التي كانت ترسل إلى المنطقة. بدليل محاولات الراهب دو فوكو المتكررة في مهماته إلى الطوارق التي أخذت طابعا تنصيريا خفيا وإنسانيا جليا (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 52).

وتسهيلا للبعثات الاستكشافية للفرنسين، تلقى الجنرال قاليفيه (Galliéni) مساندة في مهمته التي انطلقت من متليي نحو عين صالح في 1873/2/27م أين رافقه الشيخ أحمد بن أحمد الشعاني وابنه ذو 10 سنوات، وأخويه موسى وعبد القادر، والشريف مولاي محمد الطيب، غير أن سكان عين صالح كانوا قد صدوا في وجوههم الأبواب ومنعواهم من الدخول، مما جعل هذه المهمة تؤول إلى الفشل (عميراوي، زاوية، و قاصري، 2009، صفحة 71).

إن توسع فرنسا في الجنوب الجزائري لم يتأتى لها إلا بترسانتها العسكرية المتطورة، وانتهاجها لسياسة استمالة القبائل الصحراوية وكسب تأييدها بعدم احتضان المقاومين، وهو حال فشل ثورة بوعمامة أكبر الثورات وأطولها في الجنوب. لقد كان الاتفاق المبرم بين فرنسا وقبائل سيدي الشيخ الشراقة الذي تم في 1883/5/8م ضربة موجعة لزعيم ثوري كبوعمامة، هذا الاتفاق الذي نص على تحمل الإدارة الاستعمارية تكاليف إعادة بناء قبة البيوض أولاد سيدي الشيخ التي هدمها الكولونيل نيقريه (Negrier) والتي كانت سببا في اشتعال ثورتهم سنة 1864م، كما سيتم دفع 60 ألف فرنك شهريا إلى سي قدور وأفراد عائلته تعويضا على المصادرة التي طبقت على أملاكهم خلال 1864م (زوزو، 2010، صفحة 36).

كسب الاحتلال الفرنسي مزيدا من الحلفاء في ظل تقلص دائرة المقاومة الشعبية الجزائرية بالجنوب، ما جعل بونتي Ponty يقترح مشروع تجنيد 50 من مهاري قبائل الشعانية في الشرطة المحلية بالسنغال والنيجر، وقد أبدى الضابط مواني موافقته على هذه العملية (بلبل، 2017، صفحة 16).

هذا وقد صرح القائد كوفيه (Couviet) في 1902م أن تجنيد 200 شعاني ضمن شرطة الصحراء بعد تم احتلال عين صالح سيكون كافيا لاستعادة الاستقرار بالمنطقة ولن

يشكل تحالف قبائل الطوارق (آحت، أزجار، الهقار) مصدر قلق لهم، وهو نفس الحال إذا تم السعي نحو عقد اتفاق مع قبائل الطوارق بقبول التجنيد فهم أيضا لا يقلون أهمية عن العرب فقد عرفوا بحبهم للمغامرات والحياة القاسية (Baquey, 1908, pp. 59- 60).

لم يكن تجنيد الطوارق والشعانية ضمن الجيش الفرنسي لكسر شوكة المقاومة في الداخل فقط، بل اختيروا للتصدي للهجمات المتكررة على الحدود الشرقية والغربية لضمان نفوذ فرنسا وحماية مشروع الإمبراطورية الصحراوية من الفشل.

توالى الأحداث في الجنوب واتسعت معها دائرة نفوذ الجيش الفرنسي في منطقة الواحات الصحراوية وطرديا زادت مظاهر التضييق على حريات السكان واستقلالية القبائل، مما قاد هذا الوضع إحدى قبائل الطوارق إلى التفكير في إقامة هدنة واتفاق مع الإدارة الاستعمارية، وهذا بعدما تم إعلان استسلام ثلاث قبائل من أصل أربعة وقبول تعاونها معه (Baquey, 1908, p. 31).

لقد أثرت بعض قبائل الشعانية والطوارق أن تنضوي تحت لواء الجيش الفرنسي بعدما أقنعها هذا الأخير بعدم قدرتها على التصدي للاعتداءات المتكررة على قوافلها، وأنها بحاجة إلى شريك يدعمها بالسلاح، وبآليات متطورة للبحث عن أماكن تواجد المياه (Lespes, 1941, p. 40)

لقد جند أفراد من قبائل الشعانية والطوارق في فرق المهاريسات التابعة لمناطقهم، فقاعدة تجنيد المهاريسات تختلف عن الفرق الأهلية الأخرى، لأن المهاري يترك على طبيعته البدوية فهو لا يتأقلم مع حياة الثكنات العسكرية التي من الواضح أنها ستشعره بالتقييد، وقد اتخذت احتياطات في تجنيد الشعانية والطوارق في نفس الفوج، فقد اشترط ألا يتأقلم الطارقي على الشعاني والعكس، كما عمل بمخطط اجتناب وضع الأوروبيين والجزائريين في مجموعة واحدة فهذا قد عاد سلبا على روح العمل في تشكيلات عسكرية سابقة (Arnaud, 1908, p. 108).

أولت لفرق المهاريسات مهام الاستكشاف والإرشاد في الحملات الاستطلاعية، وتقفي أثر المقاومين الجزائريين، والعمل على تقديم أفضل الحلول لإدارة القبائل الصحراوية، والمشاركة في معارك الجيش الفرنسي (Baquey, 1908, p. 31). فقد شاركت في القضاء على

مقاومتي سي سليمان وبوعمامة في 1882م أين ركز الجيش الاستعماري على الاستفادة من مهارتها في التنقل مدعمة بالقوم والمشاة (Baquay, 1908, p. 58)، كما شاركت في استرجاع جانت ببسالتهما وتلقت تهاني من قادتها الكبار (Historique de la compagnie saharienne du Tidikelt, 1920, p. 29)، وبدعم من رؤساء القبائل ساهم الأمنوكال موسى أق امستان في تثبيت سيطرة الاستعمار الفرنسي في منطقة الهقار وتأمين حدودها بعد مشاركته في المعارك إلى جانب الجيش الفرنسي وملاحقة المقاومين الجزائريين (Historique de la compagnie saharienne d'Ouargla, 1920, p. 9).

كان الشعانية والطوارق نواة لفرق المهاديست الصحراوية، هذه الفرق التي كانت حجرة الدفاع في كل معارك الاستعمار الفرنسي بالجزائر، كما ساهمت في توغله في أراضي مجهولة وذللت صعوبات اختراقه للقبائل الصحراوية.

خاتمة:

بعد عرض هذه الورقة البحثية توصلنا إلى:

- ساهمت فرنسا في إذكاء الصراعات القبلية وإحياء كل الاختلافات العرقية والسياسية بين القبائل الصحراوية، والاستفادة من ذلك في توظيفهم لصالحها.
- اعتمدت قبائل الشعانية والطوارق كغيرها من القبائل الجزائرية حق الدفاع عن مناطق نفوذها خلال محاولات التوسع الاستعماري
- احتضنت الشعانية والطوارق أكبر المقاومات الشعبية بالجنوب وتزعمتها على غرار مقاومة أولاد سيدي الشيخ، مقاومة الشيخ أمود، الشريف بن عبد الله
- شارك الشعانية والطوارق في المعارك الحدودية التي انطلقت من روح دينية ضد الاستعمار الفرنسي مدعمين للسنوسيين.
- انشقت بعض القبائل عن مجتمعات الشعانية والطوارق وخالفت سلطتها ووالست الاستعمار الفرنسي ضمن اتفاقيات ومعاهدات أخذت في معظمها صبغة تجارية، وبعضها انضم بشكل صريح وسخر فرسانه لانضواء تحت لواء الجيش الفرنسي في فرق أهلية مساعدة.

- استفاد الاستعمار الفرنسي من وجود الشعابنة والطوارق في فرق المهاريسست فقد تجاوزت صعوبة تأقلم المجندين من الفرق الأخرى مع البيئة الصحراوية من جهة، ومن جهة أخرى استفادت من زعامة رؤساء هذه القبائل لاستمالة قبائل أخرى ومحاصرة المقاومين الجزائريين
- لا يختلف اثنان أن أفراد من الشعابنة والطوارق الوطنيين الأحرار قد سجلوا أسماءهم في سجل المقاومين الشهداء الغيورين على وطنهم وماتوا دون الرضوخ لأي اغراءات أو مصالح دنيوية، غير أن هناك من انصاع لمخططات الاستعمار وانجر مع مشاريعه التوسعية ضد أبناء جلدته مضيعا بذلك أمانة وحدة مصير أمته.

قائمة المراجع:

- الشيخ لكحل. (1 ديسمبر، 2021). نشاط قبائل الشعابنة على الحدود الطرابلسية الجزائرية مطلع القرن العشرين وموقف الإدارتين العثمانية والفرنسية منه من خلال وثائق الأرشيف العثماني. المجلة الجزائرية للدراسات العثمانية، 1(1)، الصفحات 61-75.
- العربي بلعزوز. (مارس، 2021). معركة جانت سنة 1916 من خلال تقارير ضابط الصف "لابيير". مجلة عصور الجديدة، 11(2)، الصفحات 472-492.
- العربي منور. (2006). تاريخ المقاومة الجزائرية. الجزائر: دار المعرفة للنشر والتوزيع.
- أماهين الشاوي اللاله البكاي. (2007). الطوارق عبر العصور (الإصدار 1). ليبيا: دار الكتب الوطنية.
- حميدة عميراي، سليم زاوية، و محمد السعيد قاصري. (2009). السياسة الفرنسية في الصحراء الجزائرية 1844-1916. الجزائر: دار الهدى.

صورية دين، و عبد الحميد دليوح. (2023). مقاومة الشريف بوشوشة ودور قبائل الشعائبة فيها (1870-1881). مجلة عصور الجديدة، 13(1)، الصفحات 301-318.

صورية دين، و عبد المجيد دليوح. (2023). مساهمة الشعائبة في الثورات الشعبية بالجنوب الجزائري - ثورة أولاد سيدي الشيخ (1865-1880) أنموذجا. هيروdot للعلوم الانسانية والاجتماعية، 7(3)، الصفحات 210-221.

عبد الحميد زوزو. (2010). ثورة بوعمامة (1881-1883). الجزائر: موفم للنشر.

علي محمد الصلابي. (2016). كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي (الإصدار 2). الجزائر: دار العزة والكرامة للكتاب.

عمار عمورة. (2002). موجز في تاريخ الجزائر. الجزائر: دار ربحانة للنشر والتوزيع.

محمد بلبل. (جوان، 2017). مقاومة الجزائريين لسياسة التوسع الفرنسي بالجنوب الشرقي للجزائر 1850-1918 من خلال وثائق أرشيفية. مجلة روافد للبحوث والدراسات، 2(2)، الصفحات 3-32.

محمد هقاري. (2023). تداعيات الاحتلال الفرنسي على النظام الاجتماعي والسياسي التقليدي لسكان منطقة الهقار 1902. مجلة الموروث، 5(1)، الصفحات 27-51.

Accardo, F. (1879). Répertoire alphabétique des tribus et douars de l'Algérie. Alger: Imprimerie de A. Jourdan.

Anonyme, Gouvernement Général de l'Algérie. (1922). Les Territoires du Sud de l'Algérie (Vol. 1). Alger: J. Carbonel.

Historique de la compagnie saharienne d'Ouargla. (1920). Paris: H. Charles Lavauzelle.

Historique de la compagnie saharienne du Tidikelt. (1920). Paris: H. Charles Lavauzelle.

Simon, H. (1955, Janvier). Comment Bou Choucha raconta un jour son histoire. Bulletin de liaison saharienne(19), pp. 15- 30.

- Soleillet, P. (1877). L'Afrique occidentale: Algérie, Mزاب, Tidikelt. F. Seguin aîné .
- Arnaud, C. (1908). Nos confins sahariens. Paris: Emile larose libraire éditeur.
- Baquet, L. (1908). La Pénétration saharienne: résumé historique (1899-1905). Paris: Imprimerie Nationale.
- Lespes, R. (1941). Les troupes indigènes de l'Algérie au service de la France: Tirailleurs, spahis et goumiers sahariens. Alger: Imprimerie Minerva.